

## اللغة العربية ودورها في بناء الحضارات العالمية



اللغة ظاهرة من الظواهر الاجتماعية ووسيلة من أنجح وسائل الرقي الحضاري، فهي الأداة الطيبة لأفراد المجتمع للإفصاح عما في أذهانهم، ففي مفرداتها سجلاً لأخلاق أهلها وعاداتهم ونشاطهم الأدبي والفكري. واللغة هي العامل المؤثر القوي في سلوك الإنساني والموجه الفذ للدّهن والعقل والشّعور. تتأثر اللغة بحضارة الأمة ونظمها وتقاليدها وعقائدها واتجاهاتها العقلية وثقافتها. فكلّ تطوّر يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردّد صداه في أداة التعبير؛ ولذلك تُعدّ اللغة أصدق سجّل لتاريخ الشعوب. واللغة العربية أصدق دليل على انتقال العرب من البداوة إلى الحضارة، ثمّ امتازت بها مدنيّتهم في عصر بني أمية ووصلت إلى الأفق العالميّ.

نهض المسلمون العرب من جزيرة العرب وانتشروا في العالم، حمل العرب معهم الإسلام ورسالته. وبهذه الرسالة أنبثوا في العالم وحملوها إلى الملوك والأمم. ومن المعلوم أنّ حياة الأمم بالرسالة والدعوة، وإنّ الأمة التي لا تحمل رسالة ولا تستصحب دعوة، حياتها مصطنعة غير طبيعية، وإنّها كورقة انفصلت من شجرتها، فلا يمكن أن تحيا أبداً. قد كتب الله للغة العربية الخلود والنصر لأنها تحمل دعوة ورسالة للإنسانية كلّها، فخرج المسلمون العرب من جزيرتهم بهذه الدعوة والرسالة.

ومن قبل ظهور الإسلام، كانوا يعيشون حياة منعزلة عن الناس والثقافات الأخرى. بدأ العرب يتصلون مع الناس غيرهم فأتروا في الحضارات والثقافات وتأثروا بها. ولم ينحصر العرب بتأثيرات الحضارات الأخرى، بل كانوا في احتكاك مع جيرانهم، فأضيفت إلى لغة عدنان ثروة الحضارة القحطانية، وحضارة كثير وفارس، والحبشة عن طريق التجارة أو طريق التنافس بين الحيرة وغسان والفرس والروم، فكانت اللغة تُواصل تطورها مكلّمة ما ينقص بما تأخذه من لغات تلك الحضارات الواسعة النطاق. وإبان الفتوحات الإسلامية العربية التي امتدّت إلى كثير من أنحاء العالم، خالط العرب الشعوب وتعلّموا لغتها واقتبسوا منها بعض العلوم والفنون.

ففي بداية العصر الأموي بدأت ترجمة العلوم والفنون إلى اللغة العربية، وعندما ازدهرت الحركة الأدبية في العصر العباسي، تُرجمت كتب الفلسفة والمنطق والطب والنجوم والرياضيات والتاريخ والكيمياء وغيرها من العلوم، من اللغات اليونانية والفارسية والسريانية والهندية إلى العربية، ما أوجد نهضة علمية وأدبية مُنقطعة النظير في تاريخ اللغة العربية. ومنذ النصف الأول من القرن السابع الميلادي، مدّ الخلفاء العرب سلطانهم إلى مصر وسورية وفارس، وفي القرن الثاني بسط الأميون نفوذهم شرقاً حتى الهند، وغرباً حتى المغرب وإسبانيا، وكذلك استقرّ العرب في سيشل وبقوا فيها إلى القرن الحادي عشر. فالإسلام لم يكن القوة السياسية والعسكرية الكبرى في العصر الوسيط فحسب، وإنما كان المصدر الثقافي أيضاً.

لقد أفسح العرب مجالاً لتقدّم العلوم والفنون، ورفعوا منارة المدينة والحضارة أكثر من خمسة قرون، بينما كانت القارة الأوروبية غارقة في سبات عميق، ولما آفاق الغربيون من سباتهم أخذوا يترجمون من العربية إلى اللاتينية، ولم يقتصر الأمر على كتابات العربية الأصلية، بل ترجموا أيضاً ما نقله العرب من العلوم عن قدماء الإغريق. إن اللغة العربية قد أثرت تأثيراً قوياً وبعيد المدى في اللغات الأخرى التي عاصرت نزول القرآن، ولقد حفلت الشعوب الإسلامية بحظّ وافر من الألفاظ العربية، ليس لها وجود في تلك اللغات إلاّ بوساطة الاحتكاك.

فقد نظر أبناء هذه الشعوب عقب الفتوحات الإسلامية إلى العربية نظرة إجلال وتقديس، لأنها اللغة الراقية المقدّسة، والتي حملت القوة والبقاء والحيوية دون سائر لغات العالم، فتعلّموا بها وأبدعوا. فاللغة تتأثر بحضارة الأمة التي تنتمي إليها.

تأثر الفرس بألفاظ العرب، لحُبهم للعربية، فأدخلوا تعابيرها في جسد لغتهم، لكي تتطوّر وتنمو وتتساير مع الرّكب الحضاريّ وتصبح لغة عالمية، لأنّ اللغة العربية كانت لغة دين وأدب وفكر، ولغة ثقافة وحضارة. وهكذا دخلت الكثير من الألفاظ العربية في اللغة الفارسية. وأخذت الفارسية تصوغ صياغة خاصّة، فتدلّ على معنى جديد ليس له وجود في العربية، وهكذا حدث في التركية، على أنّ الألفاظ العربية المتعلقة بالدين لم يتغيّر معناها في الفارسية والتركية والأردية عن الأصل العربيّ. لقد كان العرب همزة الوصل مع الشرق بوساطة فارس والروم، وكانوا نقلّة علوم الملاحة والتجارة إلى الغرب، كما أنّ ثقافتهم الخاصّة قدّمت موضوعات جديدة ونظماً جديدة في مجال الفنّ العسكري والعمارة والنسيج، وهذه التأثيرات بارزة في اللغة العربية، لقد حملت اللغة العربية رسالة الإسلام، فغنيت بألفاظ كثيرة جديدة للتعبير عما جاء به الإسلام من مفاهيم وأفكار ونظم وقواعد، وهكذا أصبحت لغة الدين والثقافة والحضارة والحكم في آن.

امتدّ تأثير الإسلام في عهد هارون الرشيد منذ القرن الثاني الهجري - القرن الثامن الميلادي، ليصبح مصدراً للازدهار الأدبيّ والعلمي والثقافي، عاشت اللغة العربية عصرًا كانت فيه لغة الحضارة بينما كانت اللغات الأخرى، ولا سيّما، الأوروبية في وضع متخلف جدًّا، تتلقّى فيه العربية ثرواتها العلمية والفكرية وبعبارة أخرى ثروتها الحضارية.

**فقد كانت اللغة العربية هي اللغة الحضارة الأولى في العالم ونشرت ثرواتها في أرجاء الأرض.**

يورغو سيمون